الاستعمار الإغريقي في برقة
"الأسباب والدوافع "

بقلم : الناجي الحربي

تعود بداية أصل الإغريق إلى العصر الحجري ، حيث سكن شبه جزيرة البلقان شعب زراعي ، استوطن أجزاءها جميعاً من تساليا في الشمال إلى شبه جزيرة البلوبونيز في الجنوب [1] .

وفي أوائل الألف الثالث ق.م دخلت شبه الجزيرة حضارة جديدة ، هي حضارة عصر البرونز ، وذلك مع شعب جديد انتشر في أنحائها ، كما انتشر في جزر بحر إيجة وفي الجنوب الغربي من آسيا الصغرى . وقد وفد هذا الشعب الجديد على شبه الجزيرة من ناحية الجنوب ، ثم امتد فيها شمالاً ، ولكن لم يصل إلى تساليا ، فظلت بها حضارة العصر الحجري كما كانت ، بينما انتشرت في بقية شبه الجزيرة حضارة المعادن [2] .

وحوالي عام 2000ق.م شهدت شبه الجزيرة قدوم مهاجرين جدد ، لهم حضارة مختلفة عن سابقتيها ، و لم يأت هؤلاء من بحر إيجة ، أو من الشرق ، وإنما قدموا من ناحية الشمال ، وأقاموا أولاً في الشمال الغربي من شبه الجزيرة ، ثم اتجهوا جنوباً في أعداد وفيرة استطاعت أن تقضي على لغة السكان الأصليين ، وأن يسيطروا عليهم سيطرة كاملة [3].

هؤلاء – على ما يبدو – هم الإغريق الذين اشتهر من بينهم حينذاك عنصران مهمان ، هما العنصر الآخي والعنصر الدوري . وكما فرضوا لغتهم على السكان الأصليين كذلك فرضوا نظامهم السياسي ، وعبادتهم للإله الأكبر " زيوس " [4].

هذه هي الآراء السائدة عن أصل الإغريق ، وكلها افتراضات لا تستند إلى معرفة أكيدة ، وكل ما يمكن معرفته عن يقين هو أنه حوالي عام 1000ق.م كان الإغريق الآريون قد استقروا – بعد سلسلة طويلة من الهجرات استمرت عدة قرون – على شواطئ آسيا الصغرى ، وفي البلاد التي تعرف اليوم باسم شبه جزيرة البلقان ، وفي الجزر التي تقع هذه بين هذه وتلك في بحر إيجة [5]

وتعتبر بلاد الإغريق من أجمل بقاع الدنيا ، لكنها تخفي تحت ظاهرها موطناً قاسياً على أهله ، فهناك شتاء قارص ، شديد البرودة ، يقابله صيف حار ، غير مطير ، وهناك سيول جارفة ، صاخبة ، أثناء الشتاء ، تتخلف عنها مجار صخرية جافة طوال الصيف ، ثم هناك سلاسل من الجبال تكتنف البلاد في كل أركانها ، ولا تترك للوديان الصالحة للزراعة سوى مساحات ضيقة محددة[6].

وعلى هذا فإن شبه الجزيرة الإغريقية ذات طبيعة جبلية فقيرة ، تقل بها الوديان التي تصلح للزراعة ، ومن ثم لم تتوفر للسكان سبل العيش ، على حين وجدت مجموعة من الموانئ الطبيعية على الشواطئ ، وتناثرت في بحر إيجة مجموعات من الجزر التي كونت جسراً طبيعياً بين بلاد الإغريق وآسيا

الصغرى ، فاندفع الإغريق نحو هذا البحر وعبروه ، ثم استقروا على شاطئه الشرقي ، وزحفوا بعد ذلك نحو شواطئ البحر الأسود ، كما اتجهوا غرباً ، ونزلت أفواج منهم في جنوبي إيطاليا ، وفي جزيرة صقلية . وهكذا اتسعت رقعة العالم الإغريقي ، وغدا بحر إيجة مركزاً لهذا العالم (7) .

ترى : هل هذه الأسباب هي التي دفعت الإغريق نحو الاتجاه إلى الاستيطان في أماكن بعيدة ؟ قد تكون تلك البيئة المحددة الموارد إلى حدٍ بعيد هي التي ساعدت الإغريق بشكل أو بآخر على الاستعمار ، و لم يكن أمامهم إلا القيام بأعمال النهب والسرقة ؛ وكذلك القرصنة ، وخوض غمار صراع عنيف دفعاً لشبح الفاقة المخيف الذي فرضته الظروف الجغرافية (8)، فاضطر الإغريق إلى النزوح من بلادهم بحثاً عن أوطانٍ جديدة تمدهم بمزيد من الرزق ، ويحيون فيها حياة آمنة مطمئنة.

لم يكن ذلك هو السبب الوحيد للاستعمار الإغريقي ، وإنما دفعتهم إليه جملة من الأسباب ، تأتي في مقدمتها الظروف السياسية في بلادهم نفسها ، فقد كان الحكم آنذاك في أيدي الارستقراطيين الأشراف الذين بغوا على كثير من المواطنين ، فلم يجد هؤلاء مفراً من النزوح إلى الخارج ، محاولين الظفر بشيء من السلطان في غير وطنهم الأصلي (9).

كذلك كانت روح المغامرة التي جُبل عليها الإغريق عاملاً آخر من عوامل الاستعمار ، فهم شعب يحب الاستطلاع ، ويستهويه البحر ، فكانت حركة الاستعمار وسيلة لإشباع هذه الرغبة في نفوسهم (10).

وكان ضيق بلاد الإغريق عن استيعاب كل أهلها وهي في تزايد مطرد ، سبباً مهماً من أسباب نزوح فريق منهم إلى الخارج ، بحثاً عن أوطانٍ جديدة ، يجدون فيها متسعاً لهم (11) ، ويتخلصون من الديون التي أثقلت كواهل العامة خوفاً من التحول إلى عبيد (12).

غير أن أهم الأسباب التي دفعت الإغريق إلى حركة الاستيطان خارج بلادهم ، هو تدهور السيطرة الفينيقية على البحر ، والتي كانت تحد من نشاط الإغريق في تلك المناطق ، بالإضافة إلى انهيار حضارات الشرق ، خاصة مصر التي كانت في دور الانحطاط ، ما افقدها نفوذها (13)

فكأنما قد خلا للإغريق وجه البحر ، وبذلك بدأوا يفكرون في تكوين مدناً لهم على سواحل المتوسط شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ، ينتقون الأماكن ذات العائد الاقتصادي ، وتلك التي تحقق لهم العمق الاستراتيجي .

يضاف إلى ذلك أن بلاد اليونان كانت تخضع لحكومات مدينيه تكمن مشكلتها في تزايد عدد سكانها ، وبسبب قوانين الإرث التي كانت تمنح تركة الأب للابن الأكبر على حساب إخوته الآخرين ، فكان ينتج عن ذلك أن أعداداً كبيرة من الأخوة والأخوات كانوا يجدون أنفسهم فجأة لا أملاك لهم . وبالتالي لا مفر لهم من التفكير في الهجرة سعياً للبقاء على قيد الحياة (14).

وحيثما نزل الإغريق كانوا يؤسسون مستعمراتهم على غرار المدن الأصلية التي هاجروا منها،ويقيمون بها المنشآت العامة التي ألفوها في أوطانهم ، ويتعبدون فيها لنفس آلهتهم الأولى ، وهكذا يُخيل لزائر المستعمرة كأنما يزور مدينة إغريقية أصلية في الوطن الإغريقي الأصيل [15] على أن وعي كهنة المواحي خاصة موحى دلفي بالمشكلة وشدة إيمان الإغريق بتلك المواحي يجعل الدارس لتاريخ الإغريق يُسلم بأن توسعهم خارج بلادهم كان واقعا لا محالة، قضيّةً حتميّةً في تاريخهم إذا كان الدين يلعب دوراً كبيراً في حياة الإغريق القدماء، ويؤمنون إيماناً قوياً بما تُلقيه إليهم آلهتهم المختلفة على ألسنة كهنة مواحيها،[16] الذين كانوا على وعي بمشكلات بلادهم ، وبضرورة تشجيع مواطنيهم على الهجرة إلى الخارج باعتبار أن الهجرة أفضل الحلول لتلك المشكلات.[17]

وحين خرج الإغريق من بلادهم مهاجرين اتجهوا أول ما اتجهوا إلى جزر بحر ايجة (بحر الأرخبيل)، فغمروها بعناصرهم المختلفة (العنصر الأيوني والعنصر الأيولي والعنصر الدوري)، ثُمّ استمروا في طريقهم نحو الشرق، فوصلوا إلى شواطئ آسيا الصغرى الغربية، حيث استقر بعضهم، بينما مضى بعضهم الآخر إلى جنوبي البحر الأسود وشماله ، إذ استغلوا مناطق القمح الخصيبة، فيما يُعرف باسم أوكرانيا (جنوبي روسيا) [18].

كذلك اتجه بعض المستعمرين ناحية الغرب، فوصلوا إلى جنوب إيطاليا، وأنشأوا هناك عدداً من المدن الإغريقية، كما استعمروا جزيرة صقلية ، وفي هاتين البقعتين أقام المستعمرون عالما إغريقيا مكتملاً، أطلق عليه اسم (بلاد الإغريق العظمى).[19] و وصلوا بعد ذلك إلى الشاطئ الجنوبي لبلاد الغال (فرنسا)، فشيّدوا مدينة (ماسيليا = مرسيليا الحالية)،ثُمّ إلى الشواطئ الشرقية لأسبانيا، وإلى شمال أفريقيا،[20] ما يعني أن اليونانيين كان لهم نشاط تجاري واستعماري في الجزء الغربي من البحر المتوسط، بل وتفوقوا على منافسيهم من الفينيقيين والأترورين في هذين المجالين حتى أواسط القرن السادس ق.م، ويرجع هذا التفوق إلى ثلاثة أسباب هي:

أ. التفوق العددي لليونانيين

ب. قرب بلاد اليونان من مجال هذين النوعين من النشاط في القسم الغربي للبحر المتوسط ، وقد كانت هذه ميزة تفوّق فيها الإغريق على منافسيهم الفينيقيين الذين كانت نقطة انطلاقهم هي الساحل السوري.

ج. عدم تعرضهم نتيجة لموقعهم للضغط العسكري الذي تعرض له سكان الساحل السوري من جانب الأشوريين ثم البابليين بين القرن التاسع والسادس ق.م.[21]

وكانت للاستعمار الإغريقي عدّة مظاهر خاصّة، في مقدمتها أنّ المواطنين الذين يخرجون من وطنهم الأصلي، وينشئون مستعمرة جديدة على شواطئ آسيا الصغرى أو شواطئ البحر الأسود، أو غيرهما من الأماكن، كانوا لا يفقدون صلتهم بالوطن الأصلي، وإنما يظلون على ولائهم له،

ويرتبطون معه بأوثق روابط الود والصداقة(22) ما يدل على أنّ الدولة كانت تنظم حركة الاستعمار بإتقان، واضعة لها الأسس والقوانين التي تكفل بقاءها أطول فترة ممكنة.

والاستعمار الإغريقي إلى ذلك كان يُعتبر عملاً رسميّاً أو شبه رسمي على الأقــل، يحــدث في الغالب بناءً على رغبة الدولة في التخلص من مواطنيها الذين ترى أن بقاءهم غير مرغوب فيه ، ولهذا كان المهاجرون لا يذهبون إلى المستعمرة الجديدة بوصفهم مجـــرد مغــامرين يســـعون وراء الثـــراء الشخصي، وإنّما بوصفهم مكلفين بعمل رسمي من قبل وطنهم الأصلي.(23)

وباختصار شديد يُمكن القول : إنّ المدن اليونانية التي انتشرت على الشواطئ المختلفة للبحر المتوسط، وأسهمت في إشاعة نوعا من الوحدة الحضارية اليونانية في حوض هذا البحر، على ســبيل المثال هي: ميليتوس وإفسوس على الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيا الصغرى، ونيابوليس (نابولي) في إيطاليا، ونيكاية (نيس) وماسيليا (مارسيليا) ومونويكوس (موناكو) على ساحل غالــة (فرنســا)، وامبريون (امبرياس) في اسبانيا، ونقراطيس (نقراش) بمصر.(24)

ويغفل الكثير أسباب مجيء الإغريق إلى شمال إفريقيا، وذلك لأنه في عهد الأسرة السادســة والعشرين الفرعونية، كثر عدد الإغريق في مصر متشجعين بما وجدوه من حسن وفادة، وكرم ضيافة، فأنشأوا جاليات لهم احتفظت بروحها الإغريقية ، بجانب مزاولة التجارة، غير أن هــذه العلاقــات الودية سرعان ما أصابها شيءٌ من التوتر إثر كثرة الوافدين من الإغريق ومحاولتهم الإنفراد بالشـــيء الكثير من نشاط أهل البلاد، فمنعت مصر قبول هجرات منهم، و لم يجد الإغريق بُداً مـــن محاولـــة النزوح إلى شمال إفريقيا. و لم يبق أمامهم إلاّ الساحل الإفريقي الممتد من مصر إلى خليج سرت، حيث كانت قرطاجة في هذا الوقت تبسط سيادتها من خليج سرت الكبير وتعمل على منع الأجانب مـــن التجارة على هذا الساحل(25) ، وربما ذلك يُفسر لنا أنّ الأسطورة الثيرانية التي لا يُمكن تصديقها بسهولة، إذ جاءت معلوماتها التفصيليّة عن كيريني من هؤلاء الإغريق الذي عاشوا في مصـــر فتـــرة مكنتهم من التعرف على موقع كيريني الممتاز، علاوة على قربها من الموطن الأصلي (بلاد اليونـــان)؛ حيث أنّ المصادر الكلاسيكية تُشير إلى أن ليبيا عَرفت عناصر قادمة من بلاد اليونان ممن سبقوا الغزو الدوري لبلاد اليونان في القرن الثاني عشر ق.م، كما أنّ الشاعر بنداروس يذكر أنّ عناصر من أهل طروادة في آسيا الصغرى قدمت إلى برقة هاربة من طروادة المدمرة في الوقت ذاته.(26)

غير أن اسم ليبيا لم يرد في النصوص الإغريقية التي ترجع إلى ما قبل الاستعمار الإغريقي سوى مرتين فقط، كلتاهما في أوديسه هوميروس(27) ، ويبدو أن الإغريق لم يعرفوا عن ليبيا سوى بعـــض مقاطعاتها الساحلية التي تلجأ إليها سفنهم التجارية، ولعلهم عرفوا أيضاً شيئاً عن واحاتها الداخلية التي اجتذب ثراؤها بعض الجنود الإغريق ممن كانوا يعملون في جيوش فراعنة مصر في العصر الصـــاوي، فيما عدا ذلك لم يكن في ليبيا ما يُغري الإغريق بارتيادها، فهي بلاد صحراوية، ولأهلها عـــادات

وتقاليد غربية ، وقد روج عنها الفينيقيون أساطير مخيفة لا تُشجع على اقتحامها ، حتى لا يُـــزاحمهم الإغريق على شواطئها.[28]

وبتأسيس مدينة كيريني[29] أصبحت رأس جسر للإغريق فكانوا يأتون إليها ثم ينطلقون منها إلى مواقع أخرى على ساحل برقة، حيث يقيمون مستوطنات إغريقية جديدة، وقد تكون هنالـــك مستوطنات إغريقية أقامها إغريق قادمون مباشرة من بلاد اليونان، إلاّ أنّ الغالب هـــو أن يـــأتوا إلى كيريني أولاً، ثمّ ينطلقون منها لإقامة المستوطنة الجديدة، وقد تابع الإغريق أسلوبهم الاســـتيطاني ذاك حتى انتشرت مستوطناتهم على طول ساحل برقة ، فأقاموا بالإضافة لكيريني وبرقة مدن توكرة الـــتي يرجع تاريخ تأسيسها إلى ما بعد إنشاء كيريني سنة 631 ق.م حيث أسسها قادمون من برقة [30] ويوسبيريدس إذ يذكرها goodchild بأن مستوطنين من برقة هي الأخرى قدموا إليها قبل سنة 515 ق.م [31] وطلميثة التي تعد من أهم الموانئ ، ويرجح أنها أقدم من برقة بالرجوع إلى الآثار التي اكتشفت بها [32] وأبولونيا والتي من المحتمل أن أهل كيريني قاموا بتأسيس ميناء لمدينتـــهم فوقـــع الاختيار على المكان الذي لا تزال آثاره قائمة إلى الآن بمدينة سوســـة [33]ودارنـــيس وانتيبرجـــوس وغيرهما من المواقع التي لا يمكن أن يفوت الإغريق فرصة الاستفادة منها واستغلالها ، لكن الحفريات لم تنشط كي نقف على تاريخ وظروف إنشائها [34].

على أن هذا الإقليم كان يتمتع بمناخ و وضع جغرافي جعل منه الامتداد المنطقي لحضارة بحر ايجة، حيث لا تبعد كريت عن ساحل شمال إفريقيا (ليبيا) إلاّ بالمسافة التي تبعد بها عن أثينا[35] ولأنّ الأرض كانت بيت القصيد الذي أزعج الإغريق ودفعهم للبحث عنها في أماكن بعيدة فيما يُعـــرف بحركة الاستعمار، فقد كان كل مستوطن جديد يصل إلى إقلـــيم كيريـــني يُمـــنح قطعـــة أرض لاستغلالها. ولهذا لعبت الأرض الزراعية دوراً مهماً في تاريخ المنطقة، حتى أن صراعا اشتعلت نيرانـــه بين السكان الأصليين (الليبيين) وبين الوافدين (الإغريق)، أدت حروب هذا الصراع إلى طرد أهـــل الأرض ودفعهم إلى المناطق الصحراوية ، و لم يأل الإغريق جهداً، و لم يدخروا وقتا في الاستيلاء على أغلب المناطق وتأسيس المدن والقرى ، واستغلال الإقليم بكل ما يملكون من طاقة لضمان البقاء بصفة دائمة[36] أو أطول فترة ممكنة.

وقد نشأت بين الإغريق والليبيين علاقات طيبة تتسم بالود والصداقة منذ نزول الإغريق أول مرة على الأرض الليبية ، إلا أن الحذر كان يرافق الليبيين تجاه الوافـــدين الجـــدد، حـــتى أنّ إقامـــة المستعمرين الأوائل في جزيرة (بلاتيا) كانت مؤقتة، وإنْ اجتهد الإغريق في اقتطاع إقليمـــا صـــالحا للزراعة، فالليبيون -على ما يبدو- عرفوا هدفهم الأساسي،[37] لذلك قادوهم ليلاً إلى (كيريـــني) لكيلا يروا أخصب بقعة في شرقي كيريني[38]، وقد كان الليبيون يستحوذون على أرض تتميز بصورة خصبة، وتنتج المحاصيل المختلفة ذات القيمة الاقتصادية مثل السلفيوم والكروم والزيتون والحنطة.[39]

واتضحت مظاهر العلاقات الودية بعد أن استقرت الأمور للإغريق في برقة، في أنّ بعـض القبائـل المجاورة للإغريق اكتسبت بعض عادات وتقاليد المستعمرين الوافدين، وبالمقابل فإن الأثـر الـديني لليبيين كان جلياً عند الإغريق [40] ما أدى إلى عمليات تزاوج ومصاهرة، وبالتـالي إلى المجاملـة في العادات والتقاليد[41]حيث ظلت صورة الغزو والاحتلال غير مكشوفة زمن (باتوس الأول) زعـيم المهاجرين الذين استوطنوا كيريني، إذ لا يعقل أن حوالي مائتي مستوطن استطاعوا وفي فترة قياسيّة من تشييد مدينة تحوي منشآت معمارية ضخمة من دون وجود تعاون كبير بينهم وبين القبائل الليبية[42].

وليس أدلّ على العلاقات الودية بين الطرفين من أنّ المدينة شهدت مرحلة هدوء واسـتقرار، ونمو في الاقتصاد رغم قلة عدد المستعمرين[43]. لدرجة أن نساء كيريني امتنعن عن أكل لحم البقـر أسوة بالنساء الليبيات، والصيام للربّة ايزيس تقديساً لها، ومن أجلها أقيمت الحفـلات[44]، كمـا ظهرت صورة (زيوس أمون) على نقود كيريني[45]، وقد ذُكر بنداروس في البوثية التاسعة: " أن أحد أبناء تيليسكواتيس قد تقدم إلى ملك الجيلجيماي طالبا يد ابنته ... "[46]،

وعلى ذلك فإن المستعمرين الأوائل من الإغريق كانوا يهـدفون إلى الاحتفـاظ بـالحقول والاستيلاء على أراضٍ جديدة، ومنحها لمن سيأتون[47] طبقاً لقرار التأسيس الذي يقضي بأخذ واحدٍ من بين كل أخين، على أن يشمل كل القبائل السبع التي كانت تتمركز في (ثيرا)، ما يوحي بأنّهـا محاولة للربط بين الأسر والقبائل هنا وهناك ؛ وما يُبرهن أيضاً على أهمية الأرض صدور قوانين دينيّة تنص على أنه في حالة انتشار وباء ما في الريف، فإنّه تُتبع إجراءات التطهير أسوةً بتلك الإجـراءات المعروفة في المدينة[48].

وليس أدل على طبيعة الاستعمار الإغريقي الزراعية إلاّ موقع مدينتي كيريني وبرقـة كـأول مدينتين أنشأهما الإغريق وسط إقليم زراعي، ولا علاقة لهما بالساحل إلا فيما بعد التأسيس لمينـائي (ابولونيا) و (بلوليماس)[49].

غير أن هذه العلاقات شابها التوتر فور وصول المستوطنين الجدد [50] تلبية لدعوة "باتوس الثاني Battus II" واستيلائهم على الأراضي .[51] إذ أفضت إلى حربين قامتا بينهما، انتصر الإغريـق في الأولى بعد أن استنجد الليبيون بالفرعون المصري (ابريس) الذي أرسل جيشا مصرياً هُزم عند نبـع (ثيستس)، و وقعت هذه المعركة حوالي عام 570 ق.م [52] وربُما استنجاد الليبيون بالمصريين يعـني الاستعانة بهم على طرد الإغريق الذين كشروا عن أهدافهم الاستعماريّة. وانتصر الليبيون في الثانيـة؛ ولعلّ مرد هاتين الحربين هو عدم استعانة الإغريق بالليبيين في استغلال الريف الكيرينايكي، بل إنهـم فضلوا استقدام مستوطنين من بلاد اليونان.[53]

ونتيجة لاستقدام مستوطنين جُدد فإنّه من الطبيعي أن يتضخم عـدد السـكان ، وتتطلـب الظروف المزيد من المواد الغذائية ، وبالتالي إلى الأراضي المنتجة لها ، وهذا يعني وجوب توسع كيريني

على حساب القبائل الليبية المجاورة لها ، وهكذا بدأ الإغريق يعتدون على الأرضي الليبية المجاورة لكريني ؛ بل ويغتصبونها [54] وربما جاء هذا تناغما مع ما اشتمل عليه قرار التأسيس على منح إقطاعات من الأراضي للمبعوثين الذين وقع عليهم الاختيار للذهاب إلى ليبيا[55] وكأن الأمر تحصيل حاصل لتنفيذ أمر بلادهم التي أبحروا من أجلها . فقد كان التحالف الليبي مع طبقة الارستقراطية عند بداية تأسيس كيريني يشير بطريق غير مباشر إلى ترك الزراعة التقليدية مثل زراعة الحبوب ، لليبيين الذين يتقنونها جيدا[56] وقد بسط الإغريق سيطرتهم على الأراضي الخصبة بعد طرد أهلها منها ، ثم دفعهم إلى المناطق شبه الصحراوية إثر صراع بين قبيلة النسامونيس الليبية والعناصر الأجنبية التي استقرت على الشاطئ الليبي بسبب المنافسة الاقتصادية [57] ولابد أن الإغريق قد عرفوا المكان الذي مروا به ليلا صحبة القبائل الليبية التي تفطنت لمراميهم الاستعمارية حرصا منها لئلا يغري الإغريق بالمقام فيه ، ولعلهم أيضا أدركوا قيمة المنطقة من الناحية الاقتصادية بالكامل من خلاله [58] .. ولربما كانت معرفتهم للأماكن الخصبة جاءت بعد استطلاعهم للإقليم بما أتاحته لهم فترة إقامتهم ، ولهذا استقدموا مستوطنين جددا.

وقد كانت قبيلة النسامونيس تتحين الفرص من آن إلى آخر للانقضاض والإجهاز على المدن الإغريقية[59] ما يؤكد على اضطراب الأمن واختلال الاستقرار الذي كان يسود المدن الإغريقية نتيجة للصراعات والمنازعات ، الأمر الذي جعل المدن الإغريقية فريسة لغارات القبائل الليبيّة[60].

وبهذا أصبحت كيريني نقطة ينطلق منها الإغريق إلى أماكن أخرى على ساحل برقة ليقيموا مستوطنات إغريقية جديدة ، متبعين في ذلك أسلوبهم الاستيطاني حتى انتشرت مواقعهم على طول ساحل ليبيا الشرقي [61] فاتضحت نواياهم ومطامعهم الاستعمارية في ظل اشتداد هجرة الإغريق وتوسعهم على حساب الليبيين[62].

فعندما أطل خطر المغامر الإسبرطي ثيبرون([63]) المغامر اسبرطي الذي جاء ينشد إقامة مملكة خاصة له في ليبيا ، ولم تتدخل القبائل الليبية في صراعه مع كيريني ، إلا بعد تمكنه من احتلال مدينة توخيرا ، حيث تسربت قواته إلى أراضي الليبيين في الدواخل بحثا عن المؤن ، فيما أدركت القبائل الليبية خطورة هذا التسرب الذي كان يهدف إلى سلب خيرات البلاد فأعدت لقواته كمينا محكما أدى إلى قتل عدد كبير منها ، وأسر أعداد أخرى ، وهربت البقية إلى السفن لمحاولة الإبحار من حيث أتت ؛ وقد كونت القبائل الليبية تحالف ثلاثي مع سكان كيريني ومع قرطاجة لصد هذا الخطر الذي هدد الجميع حتى انتهى الأمر أخيرا بالقضاء على ثيبرون ودخول البلاد إلى الحظيرة البطلمية... [64].

وقد استحكم العداء بين الارستقراطية التي تمثل المستعمرين ، وبين عامة الشـــعب الـــذين ازدادت أعدادهم ـــ ولا بد أنه كان منهم الليبيون الذين انطبقت عليهم صفة التأغرق ـــ مـــا أدى إلى قيام ثورة عارمة في كيريني قُتل فيها الكثير من الأغنياء ، وفر الكثيرون منهم ، وانتهى الأمر بقيام نظام ديمقراطي [65] بعد أن قدم المشرع (ديموناكس) [66] . وسن تشريعاته في محاولة لعلاج مشكلة الأراضي ، واهتمامه بالمقيمين في الريف ، ووضعهم ضمن أفراد القبيلة الأولى[67] ، إذ يرى (جونز) أن تقسيمات ديموناكس ضمت طبقة (البيرأويكي) التي تمثل الليبيين الذين أسهموا في إنشاء كيريني ، وتعاونوا مع المستعمرين في زراعة الأرض ، بل إنهم زوجوا بناتهم للإغريق، ومُنح الأبنـــاء حقـــوق المواطنة ، ووضعوا على قائمة الطبقة الأولى[68] ؛ في حين يرى شامو[69] أن هذه الطبقة هم مـــن الإغريق الذين يعيشون في الريف ، وليس غيرهم معتمدا على أن الإغريـــق لا يـــدخلون في عـــداد مواطنيهم عناصر غير إغريقية .

ثم أن الإغريق كانوا منغلقين على أنفسهم ، فلم يمتزجوا بالعنصر المحلي حتى وإن ذُكـــرت بعض علاقات المصاهرة التي على الأرجح كانت غايتها المصلحة بدافع التواجد ليس إلا ؛ كما أنهم لم يسمحوا لليبيين بالمشاركة في التنظيم السياسي للمدينة الإغريقية ، ولم يكن لليبـــيين أي أثـــر في ذلك . ومنذ أن ساءت العلاقات بوضوح طبيعة ونوايا المستعمرين الإغريق مع الليبيين فإن القبائـــل الليبية لم تدخر جهدا في اقتناص الفرص للانتقام منهم ، فقد حاصرت قبيلة النســـامونيس مدينـــة بوسبريدس سنة 414 ق.م ، ولم ينه هذا الحصار سوى الأسطول الإسبرطي الذي رمت به الأقدار إلى المدينة بسبب عواصف بحرية [70] .

أيضا فإن الليبيين بدأوا يميلون إلى الجانب الذي يشفي غليلهم من أولئك الذين استولوا على أراضيهم واحتكروا تجارة السلفيوم فآووا المنشقين على الحكم في كيريني ، وقاموا بمساعدتهم على إنشاء مدينة برقة [71] في الوقت الذي رأى فيه المنشقون على السلطة ، ولجأوا إلى الليبيين في برقة أن الليبيين ساخطون على كيريني ، فاستمالوهم إلى جانبهم للنيل من إغريق كيريني ، ما يؤكـــد فطنة الليبيين من مساعدتهم لجزء ساخط من الإغريق ضد غالبيتهم في العاصمة كيريني ، فكان لـــه الأثر البالغ في التنافس والصراع بين المدينتين [72]

ومن هنا يمكن القول إن طبيعة الوجود الإغريقي كان أثرها الإيجابي مقصورا على الليبـــيين الذين عاشوا على مقربة منهم ، وأطلق عليهم صفة التأغرق ، أما القبائل التي كانت تعـــيش بعيـــدا عنهم في المناطق الصحراوية والتي تقع بعيدا عن شاطئ البحر ، فقد ظلت محتفظة بعاداتها وتقاليدها الأصلية [73] وهذه القبائل هي التي ظل العداء مستحكما بينها وبين الإغريق ، ولم تفتر إغاراتها على المدن الإغريقية .

وقد كان طبيعيا أن يحاول الإغريق وهم محاطون بالليبيين من كل جانب إقامة أواصر الود والصداقة معهم حتى يطمئنوا إلى العيش في كنفهم ، وكان طبيعيا أيضا أن يكتسب هؤلاء بعض العادات والتقاليد الليبية بحكم الاختلاط والتجاور ، وأن ينظر الليبيون إلى الإغريق بوصفهم مستعمرين مغتصبين ، وأن يكشف الإغريق عن حقيقتهم ويضعوا في اعتبارهم أن الليبيين يعيشون خارج نطاق المواطنة ،

وتأسيسا على ما سبق فإن طبيعة الوجود الإغريقي كانت استعمارية تتجه نحو الزراعة بالدرجة الأولى ، ومن ثمّ استغلال الأراضي ، بل وسلبها من السكان الأصليين الذين أبعدوا نحو المناطق شبه الصحراوية .

وكان من البديهي ــ حيال ذلك ــ أن يحاول الإغريق إقامة علاقات ودية مع الليبيين حتى يطمئنوا إليهم ، ويتمكنوا من تنفيذ مخططهم الذي انطلقوا منه ، وهو أن الدولة كانت تنظم حركة الاستعمار بإتقان محكم ، وتضع الأسس والقوانين الكفيلة لنجاحها ، فقد كان الإغريق يعتبرون تأسيس المدن خارج بلادهم عملا رسميا يحدث بناء على رغبة الدولة ، وكأن المهاجرون إلى المستعمرة الجديدة مكلفين بعمل رسمي ومنظم من قبل وطنهم تشرف عليه مواحي المعابد وفقا لمخطط يدخل ضمن الاتجاه العام لاستعمارهم .

ولعل الفراغ السياسي وكذلك الحضاري ، وعدم وجود دولة ذات نظام سياسي وعسكري محكمين على الساحل الشمالي لأفريقيا الممتد من غرب الدلتا حتى المحيط الأطلسي غربا ، قد شجع الإغريق على ارتياد هذه المناطق ، ذلك لم تكن تابعة لأية قوة سياسية منظمة ذات قوة ردع ترد المستعمرين على أعقابهم ، ولم يكن بها نظام حكم يحتويها ويصون سيادتها على أراضيها ، فكانت وكأنها جاهزة لاستيعاب أي نوع من الاستعمار .

كذلك .. فإن الإغريق اقفلوا على أنفسهم ، ولم يمتزجوا بالعنصر المحلي إلا في بداية الاستيطان ، فقد حتمت عليهم الظروف الاستعانة بالليبيين ، فتزوجوا منهم ، وقاد الليبيون الإغريق إلى الأماكن الخصبة .

وبالمقابل لم ينتبه الليبيون إلى هذا الزحف الاستعماري إلا بعد أن وصلت الأمور حد الاستنزاف لإنتاج الأرض ، وبلغت مرحلة الطرد والإبعاد عن الأراضي الخصبة ، وأدركوا أنهم يعيشون خارج النظام السياسي للإغريق ، فكان الصراع بمختلف أشكاله ، هو أقرب الحلول للتخلص من ربقة السيطرة في غياب عنصر التعاون الذي كان مطلوبا بصورة ملحة لاستقرار الإغريق خاصة في المحافظة على قوة قطاع التجارة الذي كان السبب المباشر في سقوطهم وانتهاء دولتهم على أيدي الرومان .

الهوامش

1- أ. بتري : مدخل إلى تاريخ الإغريق وأدبهم وأثرهم ، ترجمة : يوئيل يوسف عزيز ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، ط2 ، 1977 ، ص8.
2- فوزي مكاوي : تاريخ العالم الإغريقي وحضارته ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة، 1999، ص26.
3- عبداللطيف أحمد علي : التاريخ اليوناني " العصر الهللادي " ، ج2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص681. انظر أيضاً: صمويل نوح كريم :أساطير العالم القديم ،الهيأة المصرية العامة للكتاب ،1974،ص202.
4- علي عكاشة وآخرون :اليونان والرومان ،دار الأمل للنشر والتوزيع ، اربد ، ط1 ، 1991 ، ص51.
5- رجب عبدالحميد الأثرم : دراسات في تاريخ الإغريق وعلاقته بالوطن العربي ، منشورات جامعة قاريونس ، ط2 ، 2002 ،ص51.
6- لطفي عبدالوهاب يحي : اليونان ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1979 ، ص39 وما بعدها .
7- المرجع نفسه ، ص40 وما بعدها .
8- جون رايت : تاريخ ليبيا ، ترجمة : عبدالحفيظ الميار و أحمد اليازوري ، دار الفرجاني ، طرابلس، ط1، 1972 ، ص20 .
9- إبراهيم نصحي : إنشاء قورينى وشقيقاتها ، منشورات الجامعة الليبية ، بنغازي ، ط1 ، 1970 ، ص10 .
10-عاصم أحمد حسين : المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، 1991، ص ص124، 125 .
11-سيد أحمد الناصري : الإغريق ، القاهرة ، ط2 ، 1985 ، ص ص 133، 134.
12-المرجع نفسه ، ص ص 133، 134.
13-رجب عبدالحميد الأثرم : مرجع سابق ، ص 107.
14-عبداللطيف محمود البرغوثي : التاريخ الليبي القديم ، دار صادر ، بيروت ، ط1، 1971 ، ص 235.
15-إبراهيم نصحي : مرجع سابق ، ص 10 .
16-عبداللطيف محمود البرغوثي : مرجع سابق ، ص ص 235، 236 .
17-Goodchild R., Cyrene and Apollonia Published by the Department of Antiquilies Libyan Arab Republic, 1970, pp. 10 .
18- إبراهيم نصحي : مرجع سابق ، ص 11 وما بعدها .
19- أ. بتري : مرجع سابق ، ص .13
20- إبراهيم نصحي : مرجع سابق ، ص 11.
21- لطفي عبدالوهاب يحي : مرجع سابق ، ص 7 .
22- رجب عبدالحميد الأثرم : مرجع سابق ، ص 107 وما بعدها .
23- أ.بتري : مرجع سابق ، ص ص 13-.15
24-لطفي عبدالوهاب يحي : مرجع سابق ، ص.32
25- حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ، مؤسسة سجل العرب ، 1962 ، ص 55 .
26- عبداللطيف محمود البرغوثي : مرجع سابق ،حاشية (1) ، ص 236 .
27- فرانسوا شامو : الإغريق في برقة ، ترجمة : محمد عبدالكريم الوافي ، منشورات جامعة قاريونس ، ط1 ، 1990 ، ص57،56.
28- فوزي فهيم جادالله : مسائل في مصادر التاريخ الليبي (ليبيا في التاريخ) ، منشورات الجامعة الليبية ، بنغازي ، 1968، ص43 وما بعدها .
29- ظل الإغريق دهراً طويلاً ، حتى إذا كان منتصف القرن السابع ق.م فكر إغريق جزيرة ثيرا الدوريون ، وهي جزيرة سانتورين الحالية في الجنوب الغربي من بحر إيجة ، في الهجرة إلى مكان يصلح لاستقرار عدد منهم ، بعد أن ضاقت بهم جزيرتهم الصغيرة ، فاتجهوا نحو الجنوب قاصدين

الشاطئ الليبي ، بعد أن استشاروا وحي دلفي ، فطلب إليهم تأسيس مستعمرة إغريقية في ليبيا الغنية بقطعانها . وقد فصل لنا المؤرخ الإغريقي (هيرودوتس) قصة استعمار أهل ثيرا للشاطئ الليبي في أربعة فصول من كتابه الرابع ، وخلاصة ما قاله : إن عدداً من أهل ثيرا – يقودهم شاب يدعى باتوس – اتجهوا بوحي من الإله أبوللو إلى الشاطئ الإفريقي المتاخم لجزيرتهم في سفينتين كبيرتين ، مسترشدين برائد من جزيرة كريت ، ونزلوا أولاً في جزيرة صغيرة متاخمة للشاطئ كانت تعرف باسم جزيرة " بلاتيا " وتقع في خليج بومبه ، ومن هذه الجزيرة بدأوا يرتادون الشاطئ الإفريقي نفسه للتعرف على الأرض الليبية قبل أن ينتقلوا إليها ويواجهوا سكانها ، وظلوا في هذه الجزيرة الصغيرة مدة عامين كاملين، ثم غادروها إلى الشاطئ واستقروا في مكان يُقال له " إيزيريس " وسط وادٍ تكتنفه الأشجار . وهنا طاب لهم المقام ستة أعوام متصلة ، توطدت خلالها صلاتهم بالليبيين الوطنيين الذين نصحوهم بالانتقال إلى مكان أفضل ، وتطوعوا بإرشادهم إليه ، واستجاب الإغريق لهذه النصيحة ، ومضوا مع مرشديهم ناحية الغرب حتى وصلوا آخر الأمر إلى نبع فوق الجبل ، يفيض بالمياه العذبة ، فبهرهم جمال الموقع ، وقرروا أن يشيدوا فوقه مدينتهم الجديدة ، وتم لهم ذلك حوالي عام 630 ف.م وأطلقوا عليها كيريني ، اشتقاقاً من " كورا " أو " كوري " وهو اسم النبع الذي وجدوه في المنطقة كما يقول الشاعر البرقي " كاليماخوس " ؛ وإن كانت هناك أسطورة إغريقية خلاصتها أن " كيريني " هو اسم الحورية التي تزوجها الإله " ابوللو" واختار أن يعاشرها في تلك البقعة من شمال إفريقيا حيث يجري نبع من الماء العذب ، فلما أنشأ الدوريون مدينتهم أسموها باسم زوجة أبوللو ، وعرفوا النبع باسم " نبع أبوللو " ، وأصبح باتوس زعيم المهاجرين وقائدهم ملكاً في المدينة الجديدة ... أنظر : رجب عبدالحميد الأثرم : تاريخ برقة السياسي والاقتصادي ، منشورات مكتبة قورينا ، بنغازي ، 1975 ، ص 107 وما بعدها ، ففيه تفصيلاً عن تأسيس المدن الإغريقية في ليبيا . وأنظر أيضاً : Goodchild, op.cit, p.11.

30- عبداللطيف البرغوثي : مرجع سابق ، ص 264 .

31-Goodchild, R.G., Benghazi The Story of City ,Department Of Antiquities, Cyrene (Shahat) , Cyrenaica, Libya ,2nd Edition, Lamin Hasni's Press,P.1.

32- عبداللطيف محمود البرغوثي : مرجع سابق، ص 263

33- نفسه ، ص 262

34-نفسه ،ص 267

35-رجب عبد الحميد الأثرم : مرجع سابق ، ص ص 85،86.

36- فرانسوا شامو : مرجع سابق ، ص 187.

37- إبراهيم نصحي : مرجع سابق ، ص ص 38،39.

38-Boardman, J ., "Evidence for the Settlements in Cyrenaica" B.S.A ., No61, 1966, pp149-150.

39- Diodorus Siculus,III ,49-50.

40- مصطفى كمال عبدالعليم : دراسات في تاريخ ليبيا القديم ، المطبعة الأهلية ، بنغازي ، 1966، ص

41- عبداللطيف محمود البرغوثي : مرجع سابق ، ص 242.

42- AL Sa,dawiya .A .,The Greek settlement in Cyrenaica, With notes on Pottery discovered there, " Libya in History " By University of Benghazi , 1968, pp.95 ff

43- Herodotus, IV, 159 .

44-Idem, IV, 186.

45-Boardman , Greek Oversease , Penguin Books, London, 1964, p. 173ff.

46-فرانسوا شامو : الإغريق في برقة "الاسطورة والتاريخ " ترجمة : محمد عبدالكريم الوافي ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ط1 ، 1990، صص : 232.

47- Herodottus و IXو153.

48- Supplementum Epigraphicum Greacum (S – E – G) IXو72.

49- S – E – G. IX و7 – 4 نقلا عن رجب الأثرم : مرجع سابق،ص 33..

50- Herodottus و IXو153.

51- إبراهيم نصحى : المرجع السابق ، ص .70
52- Goodchild. R., Cyrene and Apollonia , P – 9.
53- رجب عبد الحميد الأثرم ، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم ،ص99.
54- عبد اللطيف محمود البرغوثي : المرجع السابق ، ص .244
55- رجب عبد الحميد الأثرم : المرجع السابق ، ص 95 .
56- عبد الرحمن بدوي : ليبيا في مؤلفات أرسطو ، (مجلة كلية الآداب) ، الجامعة الليبية ، العدد 3 ، ص21 وما بعدها ..
57- رجب عبد الحميد الأثرم : مرجع سابق ، ص 104 .
58- مصطفى كمال عبد العليم : مرجع سابق ، ص 57 .
59- Goodchild . R. , Benghzi The Story of a city, 1962, p .2.
60- عبد السلام محمد شلوف : المقاومة الوطنية الليبية للاستعمار الأغريقي (مجلة الثقافة العربية) العددان : 11 و 12 ، 1985م ، ص 60 وما بعدها .
61- إبراهيم نصحى : مرجع سابق ، ص .38
62- عبد اللطيف محمود البرغوثي : مرجع سابق ، ص252 ــ 253 .
63- مصطفى كمال عبد العليم : مرجع سابق ، ص 62 . وكذلك : رجب عبدالحميد الأثرم : مرجع سابق ، ص ص 127، 128 .
64- مصطفى كمال عبدالعليم : مرجع سابق ، ص ص 60، 61 . .
65- عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص .142
66- ديموناكس : مشرع أحضره باتوس الثالث 550- 527 ق.م فور توليه الأمر في كيريني ، عقب موت والده أركيسيلاوس ، وذلك لدراسة الأوضاع في محاولة لإصلاح التدهور الذي أصاب كيريني ، وقام ديموناكس بوضع دستوره الذي أدى إلى استقرار الأحوال في الإقليم حيث قسم أهالي كيريني إلى ثلاث قبائل، ومنح الملك سلطات على بعض الأراضي المقدسة ، وحق شغل الناصب الدينية... ، أنظر : رجب الأثرم :تاريخ برقة السياسي والاقتصادي،ص ص 128،127.
67- رجب عبدالحميد الأثرم : محاضرات في تاريخ ليبيا القديم ، ص ص 97 ، 98 .
68- A.Jones ,Cities of the Eastren Empire, Oxford, 1937, p.353 Sqq
69-فرانسوا شامو : مرجع سابق ، ص 178 وما بعدها .
70 - Goodchild , op. cit . pp. 2-10.
71-Bates.O, The Eastern Libyans, London k 1961, p. 230 .
72- عبدالسلام محمد شلوف : مرجع سابق ، ص 60 وما بعدها .
73- Noshy , Arcesilaus III , Libyan in Historry , By University of Benghazi , 1968, p . 77